

مقالات رأي

عادل عسوم يكتب: الهجرة الشريفة والمراغم والسعة

أضواء البيان • 26-06-2025 • 9 دقائق قراءة



طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحبا يا خير داع

كم أجد نفسي وقافا بين يدي هجرة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وآله وما اكتنفتها من أحداث وأنا أصوب بصري إلى ملايين المهاجرين واللاجئين والنازحين في مشارق الأرض ومغاربها، وفي خاطر آية كريمة لها من المعاني والمباني الكثير المثير...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما} 100 النساء
قد يتساءل القارئ ويقول:

ماهو الرابط بين هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه والمراغم والسعة المذكورة في الآية الكريمة؟
الإجابة هي:

المراغم: موضع الهجرة، ويراد بعبارة "يجد مراغما" أي يجد متسعا ومهاجرا ينجيه من الضيق. «place(s) of refuge» معنى الآية: قوله تعالى : (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (مراغما) أي: متحولا يتحول إليه، وقال مجاهد: متزحزا عما يكره. وماكانت هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم قصة تحكى فقط يا أحباب، ولا كانت مجرد تأريخا يؤرخ به، إنما أقدار لله جعل ابتدارها مكة والمدينة؛ وصلا بحراك الناس من بعد الفتح لهجرات تحمل من المضامين الكثير، عمراننا للأرض، وإراءة لآياته ودينه الذي ارتضى في الآفاق سوحا وفضاءات. تذكرت آية المراغم هذه عندما رأيت صورة جثمان طفل سوري كردي قذفت به الأمواج على شواطئ تركيا، حيث غرق ضمن مهاجرين ميممين صوب الشواطئ اليونانية.

وحاش لله أن يكون ظلما للعبيد، إنه هو جل في علاه أرأف بنا من الأم بوليدها، وهو كذلك أقرب لنا من حبل الوريد، إنها أقدار الله وحكمه التي تعجز عقولنا القاصرة المحدودة عن الإحاطة بها وإن بلغت البشرية مابلغت من ذرى العلم واسباب المعرفة، ولنا في قصة الرجل الذي أتى من أقصى المدينة عبرة، قال عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال الله له: ادخل الجنة، فدخلها حيا يرزق فيها وقد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها، فلما أفضى إلى رحمة الله وجنته وكرامته {قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين} 26 يس.

لقد انساه النعيم الذي وجده كل ظلم وقع عليه وقد مات مقتولا!...
ومافتئت الهجرة الشريفة وآية المراغم في خاطري تترادفان وتتساوقان كلما نبا إلى الأذن خبر لنزوح أو لجوء هنا

أوهناك، نزوح في ذات الديار أو لجوء إلى أرض لله، والنزوح واللجوء في مبتدئه ومنتهاه هجرة وان اختلفت التفاصيل وتغير الزمان...

أقول ذلك وفي الذاكرة عظماء كثر أسهموا إيجاباً على ظهر هذه الأرض، بل أسهم البعض منهم في تغيير مسار التاريخ الإنساني بعد أن جاؤوا وتجدروا في أمكنة لم يكن لهم وصل بأهلها من قبل! كل أولئك ما كان لهم أن يفعلوا ذلك إن لم يهاجروا إلى مراغم أخرى يتخذونها وطناً وملاذاً دون الذي ولدوا ونشأوا فيه...

والأمر عندي لا يرتهن بتعريف للهجرة المنتهية عند فتح مكة، إنما هي هجرة الدفع بالناس بعضهم ببعض، {...ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} 251 البقرة. فهذا الدين الخاتم ما كان له أن يقعي بأهله في مكان بعينه ليذوي، إنما تأتيهم أقدار الله، فتجعل من عباده كما بذور أشجار الصنوبر تتناثر في الهواء لتقر في أرض جديدة، فتنمو فيها لتصبح نباتاً يانعا وأشجاراً أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء، ولعمري إنها هجرة (الفتح) لهذا الدين طراً...

بأبي أنت وأمي وذاتي يا رسول الله يوم ناديت الصديق وقلت: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، فقال لك الصديق الرفقة الرفقة يا رسول الله... يومها ارتعت قصة يراع التاريخ بحبر كثيف، وشرع السنان يكتب على صحائف الزمان أحرفاً أعلم يقيناً أنها لم تختتم بعد...

اقرأوا بالله عليكم هذا السياق المفعم بالايमान والريان بعنفوان الفكرة والروح الناشدة للوضاعة وقد كتبه عام 1948 خالد محمد خالد حيث قال:

(كان السادة والعبيد طبقتين، وانبثق من ضمير الصحراء الساجية رسول كريم، جاء يدق أجراس المساواة، ويحطم أغلال الرقيق وقاد أبو جهل المعركة ضد الحرية، ولكل أمة أبو جهلها، وذهب وفد الضالين يوماً للرسول وتقدم الوليد يسأله: يا محمد أجيئنا لتجعلنا وأشباه ابن سمية الذليل سواء؟

فأجابه محمد صلى الله عليه وسلم، نعم ولنجعلهم أئمة ولنجعلهم الوارثين، وبهذه العبارة الثورية أعلن محمد حرية العبيد وسيادة المستضعفين، ومضى يؤكد أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن هؤلاء الكبار الذين يتوارثون من آبائهم مناصب البلد وأمجادها لا يساوون عند الله جناح بعوضة ماداموا يفقدون الفضيلة النفسية، وانطلقت أحقاد السادة تعوى وتزجر اقتلوا محمد، اقتلوا هذه الطليعة الناشئة فإن في بقائها فناؤنا.

وهاجر الرسول وصحبه لا فراراً بحياتهم بل فراراً برسالتهم التي يجب أن تبلغ مداها، وعاد محمد إلى مكة يقود جيش الخلاص، ونفذ إلى الأفق البعيد، وراح ينادي أجيال أمته الوافدة وليست أمة المسلمين وحدهم، بل المضطهدين في كل زمان ومكان، وراح يناديهم للهجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية.

انتهى كلام خالد محمد خالد

(روز اليوسف).

ويومها وقف الحبيب صلى الله عليه وسلم على الحزرة وبجواره رفيق هجرته الصديق رضي الله عنه وقال وهو يرنو إلى أرض مكة:

والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض إلي ولولا أن أهلك أخرجوني عنك ما خرجت منك.

فذاك نفسي وأبي وأمي يارسول الله...

تلك السيوف الأربعة، ودونها سواعد وعقول وعنفوان، ما كان لنا أن نقرأها كغيرها من القصص والحكايات، فالخارج من بين نصالها من قبل أن يكون المعصوم لهو القدوة والمتبوع صلوات الله وسلامه عليه... وستبقى (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) عاصمة و قاصمة و منجية لكل من أختب إليك ياربي وإلى أن ترث الأرض ومن عليها، وستظل كذلك مؤنلا لكل السالكين لذات طريق الهجرة، والوجدان منهم محتشد ومستف بهذا الإسلام الخاتم، يفرون إلى الله كانبثاث بذور الصنوبر يحملها الهواء إلى أرض جديدة وعوالم للحياة رحيبة...

ولاغرو أن هذا الطريق وان بدا ظاهره مهربا؛ إلا إنه في أصله وقراره مبتدر ومنتهى، إنه طريق الاختبات لله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد...

يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين السيوف الأربعة ليواصل الصدع بمنهج الله، وإذا بسراقة بن مالك ينطلق في أثره، ويوشك فرس سراقة اللحاق برسول الله وصاحبه، ولكن يبقى رسول الله ثابتا وراسخا كالطود لا يهتز، ما السبب في كل ذلك؟!

انه الاختبات لله يأحباب!

الاختبات إلى خالق السموات والأرض، ومجري السحاب، الواهب، ثم القابض للأرواح، وانها لعمرى القناعة بمعية الرحمن، معية أقرب من حبل الوريد، إذ بين يديها وفي رحابها يولد المختون...

أبعد كل ذلك يتشدد موتور بأن الهجرة ليست إلا مهرب ومنجاة؟!

لا ورب الأرباب...

ويقترب سراقة بفرسه وقد منى النفس بحمر النعم التي وعده اياها قادة قريش، ويستبد به سكر الفرح وهو يوشك على نيل مبتغاه، ولا يبقى بينه وبين مبتغاه سوى مسافة قصيرة لاتزيد عن خطوات معدودات يخطوها حصانه، فيهيئ نفسه للمغنم، ويخرج سيفه من غمده، وتفتت شفتاه عن بسملة الانتصار، والخيال منه مشغول باستعراض صفوف النوق، ورائحة الخمر تكتنف خيشومه، ومرأى رقص القيان فرحا بالانجاز الكبير الوشيك تلوح له في الآفاق، فكل حسابات الدنيا تقول بأنه قاب قوسين أو أدنى لأن يدرك مبتغاه ويتم مراده، ولكن:

فات عليه -وهو المشرك- أن المشيئة لله الواحد الأحد لا لسواه، فات عليه -وهو الغافل- أن الله أبطل مفعول الاحراق من النار على نبي الله ابراهيم عليه السلام، فات عليه -وهو المنكر للغيب- أن الله أنجى نبيه موسى عليه السلام عندما طمأن قومه قائلا (كلا إن ربي سيهدين) فضرب البحر بعصاه لينفلق وينجلي عن طريق ييس فينجيهم الله من فرعون وجيشه!...

اسألوا كل لاجئ هاجر من موطنه واستقر في مراغم أخرى عن قصته لتجدوا فيها الكثير المثير من الإدهاش! إنها مشيئة الله لنصرة الخير على الشر منذ الأزل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإذا بقساوة الصخر تستحيل لنا وعجينة، وإذا بتراب الأرض يصبح طينا لازبا لتصيح فيه سيقان حصان سراقة بن مالك فيتوقف عن الانطلاق والمسير،

وأخذ سراقة من حيث لم يحتسب، وإذا به يستبين بأن هناك قوة عظيمة فوق قوته.

وارادة عظمى فوق ارادته، ومشية لمن خلق السماوات والأراضين ومافيهما من حياة فوق مشيئته ومشية قومه من قريش وصناديدها...

وإذا بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم تتغشى وجهه الشريف ابتسامة وضيئة فينادي ويقول:
ياسراق لا تبتئس، ستلبس سوارى كسرى بإذن الله!
ويشهد سراقه بأن لا اله الا الله، وأن محمدا رسول الله...
صلى عليك الله يا نبي الهدى ماهبت النسائم
وماناحت على الأيك الحمائم...
adilassoom@gmail.com

<https://www.almuhit-adn-news.com/news/2134> عادل-عسوم-يكتب-الهجرة-الشريفة-والمراغم-والسعة

© 2026 شبكة المحيط الإعلامية — جميع الحقوق محفوظة